التَّرَف

عناصر الموضوع

مفهوم الترف	٣٨٦
الترف في الاستعمال القرآني	٣٨٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٨٨
أسباب الترف ومظاهره	٣٩٠
أخلاق المترفين وعاقبتهم	٤٠٤

مفهوم الترف

أولًا: المعنى اللغوي:

تطلق كلمة (ترف) ومشتقّاتها في اللغة العربية على عدة معانٍ، تدور كلها حول التنعّم، والتّرفّه، والرفاهية، فالتّرف والإتراف: النّعمة. والتّنعّم، والتّرفة: الطّعام الطّيّب[١]، وقيل: التوسّع في النّعمة[٢].

والمترف كـ(مكرم): المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع منه[٣]، يقال: رجلٌ مترفٌ منعّمٌ، وترّفه أهله إذا نعّموه بالطّعام الطّيّب والشّيء يخصّ به[٤]، وصبيٌّ مترفٌ، كـ(مكرمٍ): إذا كان منعّم البدن مدلّلًا، ورجلٌ مترّفٌ، كـ(معظّمٍ): موسّعٌ عليه[٥].

والمترف: الّذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش. وأترفته النّعمة، أي: أطغته[٦]، وإنّما سمّي المتنعّم المتوسّع في ملاذّ الدّنيا وشهواتها مترفًا؛ لأنّه مطلقٌ له، لا يمنع من تنعّمه، وأترف فلانٌ: أصرّ على البغي[٧].

فمعاني الترف تدور حول: النعمة، والمتعة، والدعة، والشهوة، والسلطة، وما تستعذبه النفس، وتستريح إليه من ملاذ الحياة وشهواتها[٨].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الترف هو: مجاوزة حدّ الاعتدال في التنعّم وإشباع رغبات النفس[٩]. فالمترفون إذن حريصون على الزيادة في أحوالهم وعوائدهم، وساعون إلى بلوغ الغاية في حاجات النفس الحسية من المآكل، والمشارب، والمساكن، والمراكب.

(١) انظر: المحكم، ابن سيده، ٩/ ٤٧٦.
(٢) انظر: الدر المصون، الحلبي، ٦/ ٤٢٥.
(٣) انظر: الدر المصون، الحلبي، ٦/ ٤٢٥.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٤٥.
(٥) انظر: تاج العروس، الزّبيدي، ٢٣/ ٥٤.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ١٧.
(٧) انظر: تاج العروس، الزّبيدي، ٢٣/ ٥٤.
(٨) انظر: الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي، نادر فرج زيادة، ص٩.
(٩) عرّف الترف بعدة تعريفات، كلها متقاربة.
انظر: الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ٩، الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي، نادر فرج زيادة ص٤٥.

الترف في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ت ر ف) في القرآن الكريم (٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون:٣٣]
اسم المفعول	٥	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الواقعة:٤٥]

وجاء الترف في القرآن بمعناه في اللغة: التوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٦٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسراف:

الإسراف لغةً:

السين والراء والفاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على تعدّي الحدّ والإغفال أيضًا للشيء. تقول: في الأمر سرفٌ، أي: مجاوزة القدر[١].

الإسراف اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «صرف الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي»[٢].

وقال الطاهر ابن عاشور: « والإسراف: الإفراط والإكثار في شيءٍ غير محمودٍ»[٣].

الصلة بين الإسراف والترف:

العلاقة بين الترف والإسراف علاقة وثيقة مترابطة، فالسّرف هو أوّل ظواهر الترف وأولى لبناته، والإسراف يجرّ حتمًا إلى الترف، وهو من الأخلاق التي تنهار معها أخلاق الفرد وأخلاق المجتمع.

٢ التبذير:

التبذير لغةً:

بذّره تبذيرًا: خرّبه وفرّقه إسرافًا. وتبذير المال: تفريقه إسرافًا، وإفساده[٤].

التبذير اصطلاحًا:

هو «صرف الشيء فيما لا ينبغي»[٥].

وقيل: هو إنفاق المال في المعاصي أو في غير حق.

الصلة بين التبذير والترف:

إذا تفاقم الترف في تجاوزه للحدّ فإنه يصل إلى حدّ التبذير، وإضاعة الأموال في أمور ضارّة، أو لا حاجة لها.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١١٩.
(٢) التعريفات، ص٢٤.
(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ١١٢.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٦/ ٦٧.
(٥) التعريفات، الجرجاني، ص٢٤.

٣ التقتير:

التقتير لغة:

من قتر، وفلان قتر ضاق عيشه، وضيق على عياله في النّفقة[١].

التقتير اصطلاحًا:

عرفه المناوي بقوله: هو «تقليل النفقة، ويقابله الإسراف، وهما مذمومان»[٢].

الصلة بين التقتير والترف:

كما هو واضح، فإن العلاقة بينهما علاقة تضادّ، فالتقتير تضييق في النفقة، والترف مجاوزة الحدّ في الإنفاق.

٤ الشح:

الشح اللغة:

«البخل مع حرص»[٣]. وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: «الشح أشد البخل»[٤].

والشح اصطلاحًا:

هو: «حرص النفس على ما ملكت وبخلها به، وما جاء في التنزيل من الشح، فهذا معناه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]»[٥].

قال الراغب رحمه الله تعالى: «الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة»[٦].

وقال الجرجاني رحمه الله تعالى: «بخل الرجل من مال غيره»[٧].

الصلة بين الشح والترف:

العلاقة بينهما أيضًا علاقة تضادّ، فالشّحّ فيه منع الإنفاق، والترف مجاوزة الحدّ فيه.

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧١٤.
(٢) التوقيف، ١/ ١٠٥.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٧٨.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٩٥.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٤٩٦.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٤٦.
(٧) التعريفات ص ٤٢.

أسباب الترف ومظاهره

للترف أسباب ومظاهر بيّنها القرآن الكريم سوف نتناولها فيما يأتي:

أولًا: أسباب الترف:

الترف ظاهرة اجتماعية، وآفة إنسانية خطيرة، تنشأ وتظهر لأسباب ودواعٍ كثيرة، منها:

١. بسط الدنيا ووفرة النعم.

انفتاح الدنيا على الناس، ووفرة النعم يكون غالبًا من أكبر دواعي الترف وأسبابه؛ وذلك لأنه يدعو إلى الركون والمتعة والراحة، ويدفع إلى البذخ والإنفاق في غير حاجة، وواقع المجتمعات يشهد بذلك، فإنه كلما بسطت الدنيا على الناس اقتربوا من الترف والبطر.

وقد أوضح الله تعالى في كتابه هذه الحقيقة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ٧].

ومن أجلى صور الطغيان وأوضحها البطر بالنعمة والإنفاق في غير حاجة ترفًا ومباهاة وحبًّا للظهور.

وهذا ما خشيه النبي صلى الله عليه وسلم علينا، فقال محذرًا لنا: **(فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدّنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم)**[(١)].

وقد بيّن الله تعالى أن التوسعة في النّعم على العباد في الدنيا إنما هو امتحان وابتلاء، وليس رضًا عليهم ولا محبة لهم بخلاف ما يعتقدونه؛ فإنهم يعتقدون أو يظنون بأن النّعم التي تأتيهم علامة على رضا الله عنهم، وليس هذا في الحقيقة، فمن عاش في حياة الترف وألهاه التنعّم بالانغماس فيه والاستكثار منه عن التعبد لله تعالى وأشغلته هذه الأمور عن طاعة الله تعالى فهذا مسكين.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ -٥٦].

قال قتادة: «مكرٌ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح»[(٢)]. إن هؤلاء: «يحسبون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا، ٧/ ١٧٢- ١٧٣، رقم ٦٤٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٧٤، رقم ٢٩٦٢، من حديث عمرو بن عوف.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤١٧.

أن الإملاء لهم بعض الوقت، وإمدادهم بالأموال والبنين في فترة الاختبار، مقصود به المسارعة لهم في الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وإنما هي الفتنة، وإنما هو الابتلاء ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لا يشعرون بما وراء المال والبنين من مصير قاتم ومن شر مستطير!»[1].

ويزداد تأثير كثرة النعم ووفرتها على الإنسان، وجرّه إلى الترف وغاية الرفاهية حين يكون مولودًا في النّعم، لم تمرّ به حالات بؤس، ولم يعرف شدّة البلاء ومعاناة الفقر، بل جاءه المال وتوفرت لديه النّعم بسهولة ويسر من دون ما كسب أو بذل جهد.

٢. حب النفس للشهوات.

«حبّب الله تعالى للبشر زينة الحياة الدنيا وزخرفها، فقال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وليست المشكلة في ذلك الحب الذي وضعه الله تعالى في القلوب، بل إنه فطري، وضروري لاستمرار الحياة والقيام بواجب الخلافة في الأرض، ولكنها تكمن في تقديم حبّ تلك الأشياء على محبوبات الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وما ينتج عن ذلك من التشاغل بها والركون إليها، حتى يصير الإنسان كأنه مسترقٌّ لها لا يستطيع عمل ما يخالفها، وإن كانت في ذلك سعادته ونجاحه، وقد حذّر الله تعالى في كتابه عباده من تقديم حبّهم لشهواتهم وملذّاتهم على حبّه وحبّ رسوله صلى الله عليه وسلم، والعمل لدينه، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فليحذر الإنسان من الترف الذي يجعل نفسه عرضةً لعبودية الهوى والشهوات، ويردّ الحقّ ويكذّب به، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٢.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]»[١].

٣. طول الأمل ونسيان الموت.

«الانشغال بمتاع الدنيا وشهواتها ناتج عن طول الأمل، ونسيان الإنسان كونه في رحلة إلى الدار الآخرة تكتمل بنزول ملك الموت لقبض الروح، ونظرًا لخطورة تلك الغفلة عن ذلك المصير وما تنتجه من ضعف الخوف من الله تعالى وقلّة الخشية له، وبالتالي عدم المحاسبة للنفس والمراقبة لعملها.

قال تعالى محذّرًا من ذلك: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

قوله: ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ أي: يشغلهم أملهم في الدنيا والتزيّد منها عن النظر والإيمان بالله ورسوله»[٢]، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ «أي: عاقبة أمرهم»[٣].

وقال صلى الله عليه وسلم موصيًا ابن عمر: (كن في الدّنيا كأنّك غريبٌ أو عابر سبيلٍ)[٤].

«وذلك لأن الغريب لا تعلق له ببلد الغربة، ولا تشاغل لديه بملذاتها وملهياتها، بل قلبه معلّق بوطنه الذي يرجع إليه»[٥] «والمسافر لا همّ له في الاستكثار من متاع الدنيا أثناء قطعه لمنازل السفر، وإنما يكتفي بتحصيل زاد السفر له و لراحلته لا غير»[٦].

٤. الاغترار بالمال والسلطان.

« قال الله تعالى عن قارون أنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

أي: فضّلت به على النّاس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه»[٧]. «إنها قوله المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال ويعميه الثراء. وهو نموذج مكرر في البشرية. فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه. ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابًا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه!»[٨].

«إنّ الجاه والمنصب قد يحمل على الظلم، والتعدّي، وعدم المبالاة بحقوق الآخرين، كما هي عادة المترفين»[٩].

(١) الترف وخطره على الدعوة والدعاة، فيصل البعداني، مجلة البيان، بتصرف يسير.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كن في الدّنيا كأنّك غريبٌ أو عابر سبيلٍ)، ٨/ ٨٩، رقم ٦٤١٦، من حديث عبد الله بن عمر.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٧٨ بتصرف.
(٦) المصدر السابق ٢/ ٣٨١.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٥.
(٨) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٢.
(٩) الترف وذمه في القرآن الكريم، محمد المحيميد ص٢٣٤.

«ومن مضار الجاه أن يستخدمه فيما يسوء الخلق، فالأمير قد يظلم المأمور بتوقيفه بحجّة باهتة، أو بالاستيلاء على ماله، أو بمنعه من دخول البلاد، والموظف -وهو أمير على من تحته- قد يظلمهم...، ولا يعمل تلك الأعمال إلا المترفون المنعمون بحصول الجاه لهم»[1].

٥. ضعف الإيمان.

من أبرز أسباب الترف: ضعف الإيمان أو انعدامه، وقلة الوازع الديني؛ فإن «الترف مرتبط بالبعد عن دين الله ارتباطًا وثيقًا؛ ولذا فإن الترف إنما ورد ذكره في السور المكية، وفي ذمّ القوم المعاندين للرسل الذين أبطرتهم النعمة وصدتهم عن الإذعان للحق النازل من عند الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

إنّ النعمة إذا لم تصادف قلبًا مؤمنًا خاشعًا فإنها تتحول في كثير من الأحيان والأحوال إلى أداة للترف والبطر والطغيان.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥].

ولا يعني ذلك أن الترف خاصّ بالكفار والمكذبين، بل هو خلقٌ عامّ ينطبق على كل من اتصف به، والله تعالى يذكر صفات القوم ليحذّرنا من الوقوع فيها، وقد وقع كثير من المسلمين في الترف، وهذا راجع إلى ضعف الإيمان، وقلة الوازع، والانغماس في المعاصي، والاغترار ببريق الدنيا وزخارفها»[2].

٦. التقليد.

إنّ الإنسان يتأثر ببيئته تأثّرًا كبيرًا، فمن نشأ في بيئةٍ مترفةٍ لا تهتم بتربية النّشء على الجلد والخشونة، ولا توجهه في كيفية التعامل مع فتنة الحياة الدنيا وزخرفها، فإنّه يتأثر بذلك حتمًا إلا من رحم الله.

وقد جاء في بعض آيات الترف الإشارة إلى تأثّر المترفين ببيئتهم وأسلافهم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

يقول المترفون: «وجدنا آباءنا في نعمةٍ من الله وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضاه عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك

(١) الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ١٨.

(٢) الترف وذمه في القرآن الكريم، محمد المحيميد ص٢٣٦.

على آثارهم»[1].

ثانيًا: مظاهر الترف ومجالاته:

المتأمل لحقيقة الترف يجد أنّ صوره وأشكاله قد تعدّدت وتنوّعت في القرآن مما يدّل على خطورته وأثره في سلوك العبد مسلمًا كان أم كافرًا، وهذه المظاهر حينما يتأملها المسلم في الآيات يشعر بمدى عظم ذلك الجرم، ويرى في ثنايا الآيات رحمة الله بعباده المسلمين حيث حذّرهم من هذه الآفات التي أهلكت الأمم السابقة، فيدفعه ذلك إلى شكر نعم الله تعالى عليه، والتحدّث بها ظاهرًا والإقرار بها باطنًا، وتصريفها في مرضاته.

وللترف مظاهر كثيرة، من أبرزها ما يلي:

١. الترف في مواجهة الأنبياء.

للترف أثرٌ بالغ في الدول والمجتمعات، بل هو معول هدمٍ لطاقاتها وقدراتها؛ فهو يغري صاحبه بالإخلاد إلى الأرض والخوض في الدنيا، والتعلّق بالمناصب والجاه والمال، ونسيان معالي الأمور وعدم المخاطرة بالنفس في طلب العلم والجهاد؛ ولهذا عدّ المترفون أعداءً للأنبياء والمرسلين؛ لأنهم يقفون في طريق الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

❁ المترفون وعقيدة التوحيد.

ما من رسول إلا دعا قومه إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى وإفراده بالعبودية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن خلال تتبع قصص الأنبياء في القرآن الكريم وجد أن الصفة التي تكاد تطّرد في جميع مكذبيهم هي الترف الحامل على رفع لواء العتوّ والاستكبار والإباء، فالمترفون «هم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء»[2]، وهم الملأ الذين يتولون كبر معارضة الرسل، كما ورد في آيات كثيرة من القرآن.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧].

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥١.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦٧.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٤].

وحينما دعا نبي الله هود عليه السلام قومه لدعوة التوحيد أجابوه بقولهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

ومثل ذلك وقع من قوم نبي الله صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ - ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٤-٦].

❁ المترفون وجحد الرسالات.

واجه المترفون رسلهم أيضًا في أصل رسالتهم ونبوّتهم من الله تعالى، وأخذوا يشكّكون في ذلك، ويرفضون قبول أنهم مرسلون من الله تعالى مبلّغون عنه، مما زاد من الضيق والحرج في صدور أنبياء الله، وقد بيّن القرآن هذه المواجهة في آيات كثيرة، منها:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في هذين الوصفين إيماء إلى أنهما الباعث على تكذيبهم رسولهم؛ لأن تكذيبهم بلقاء الآخرة ينفي عنهم توقّع المؤاخذة بعد الموت، وثروتهم ونعمتهم تغريهم بالكبر والصلف؛ إذ ألفوا أن يكونوا سادةً لا تبعًا.

وجملة: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة؛ لتوهمهم أن البشرية تنافي أن يكون صاحبها رسولًا من الله، فأتوا بالملزوم وأرادوا لازمه.

وجملة: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ في موقع التعليل والدليل للبشرية؛ لأنه يأكل مثلهم ويشرب مثلهم ولا يمتاز فيما يأكله وما يشربه[1].

ولذلك لم يتقبلوا ما دعاهم إليه رسولهم من اتقاء عذاب يوم البعث وطلبهم النجاة باتباعهم ما يأمرهم به، فقال بعضهم لبعض: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال.

❁ المترفون وعقيدة البعث.

رفض المترفون الإقرار والإذعان بعقيدة البعث بعد الموت، واستهزءوا برسولهم فيما قال، وواجهوا هذه العقيدة بالسخرية، فقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٨].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والاستفهام في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ للتعجب، وهو انتقال من تكذيبه في دعوى الرسالة إلى تكذيبه في المرسل به، وجعلوا موجب الاستبعاد هو حصول أحوال تنافي أنهم مبعوثون بحسب قصور عقولهم، وهي حال الموت المنافي للحياة، وحال الكون ترابًا وعظامًا المنافي لإقامة الهيكل الإنساني بعد ذلك»[2].

وبيّن سبحانه وتعالى أن ذلك التكذيب من أسباب عذابهم يوم القيامة.

فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٥٠].

فقد «كانوا يقيمون على الكفر بالله والإشراك به ومعصيته، ولا ينوون التوبة من ذلك، وكانوا يقولون إنكارًا للبعث: أنبعث إذا متنا وصرنا ترابًا وعظامًا بالية؟ وهذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له»[3].

قال البيضاوي رحمه الله: «﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كررت الهمزة للدلالة على إنكار البعث مطلقًا وخصوصًا في هذا الوقت، كما دخلت العاطفة في قوله:

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ٥٢-٥٣ باختصار.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التفسير الميسر لنخبة من العلماء ١/ ٥٣٥.

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ للدلالة على أن ذلك أشد إنكارًا في حقهم لتقادم زمانهم، وللفصل بها حسن العطف على المستكن في ﴿لَمَبْعُوثُونَ ﴾»[1].

ولذلك جاءت الآيات لتواسي النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهته لعتو قومه من المترفين وكفرهم بدعوته.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣- ٢٤].

٢. الترف في متاع الحياة الدنيا.

من أبرز مظاهر الترف في الحياة الدنيا ما يلي:

❁ الترف في المال.

الإنسان بطبعه يحب المال حبًّا كثيرًا؛ فهو وسيلته للعيش في الحياة الدنيا، وللزينة فيها كثرت أو قلّت، قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠].

وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦].

وقد جعل الله الأموال قيامًا للناس، وقسمها بين عباده كما يشاء، قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وكان هذا المال مجالًا لطاعة الله وعبادته لأهل الإيمان والدين، ينفقونه في مرضات الله بعدما يكتسبونه مما أحلّ الله، وأما أهل الشر والفساد؛ فإنهم يكتسبونه من الحرام، أو ينفقونه في الحرام، أو هما معًا.

وقد قال تعالى عن إبليس: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٤].

ومشاركة إبليس للعباد في أموالهم هو ما يأمرهم به من إنفاقها في معاصي الله تعالى، فكل مال عصي الله فيه بإنفاق في حرام، أو اكتساب في حرام، فهو من مشاركات إبليس لعنه الله، والله تعالى لا يحب الفساد.

والمال في الأصل هو مال الله، أعطاه للإنسان وديعة؛ لينفقه على نفسه، وعلى مجتمعه في سبيل الخير، وهذا ما صرّح به

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٨٠.

القرآن، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فإسراف الغني في إنفاق المال وتبذيره بغير الطرق المشروعة هو اعتداء على مجموع الأمة؛ لأن المال عصب الحياة، ومصدر قوّة الأمّة.

ولقد وصف الله المبذرين بالسفه، وأمر بالحجر على أموالهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]. يعني: لئلا يضيعوها.

وإضاعة المال تكون بإنفاقه في غير وجوهه الشرعية، وكذلك تعريضه للتلف.

ولقد راج التبذير في مجتمعنا في الطبقة الغنية والطبقة المتوسطة، وهذا ما ينذر بأوخم العواقب.

ومن صور الترف في المال ما ذكره الله تعالى في قصة قارون؛ فهذا الرجل قد أعطاه الله من الخير المال الكثير والرزق العميم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه، ولكنه لم يشكر الله تعالى، وبدّل نعمته تعالى كفرًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ۙ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦ - ٨٣].

هذه الآيات قد فصّلت حاله، وبيّنت مآله، وكشفت شيئًا من ترفه في المال، فمن ذلك:

- أن مفاتح كنوزه تعيي المجموعة من أقوياء الرجال ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.
- أنه لم ينتصح بما أسداه إليه قومه من نصح، بل استعد وتجمّل بأعظم ما

يمكنه ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ مريدًا بذلك إظهار عظمته وكثرة أمواله. فكان مآله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

وهنا يجب مراعاة أمر مهم ألا وهو أن ما سبق لا يعني محاربة أو رفض الحياة الهانئة، بل إن الأمر يتعلق بمدى الانغماس في النعيم، فلا يجب إنكار هذا التنعم إذا ما وقع في إطار الاعتدال.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

أما ما كان منه في إطار المبالغة التي تصل إلى حدّ الإسراف والتبذير فإنه ولا شك مذموم مرفوض.

❁ **الترف في الطعام.**

لا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

لكن البعض يأكل ليس لأجل الحاجة لأكل، بل لأجل التعوّد، فهو مثلا تعوّد على نظام الوجبات الثلاث، والتوسّع في المآكل والمشارب، والتفنّن في إعداد الطعام وتزيينه، والإكثار من الحديث عنه والتفاخر به، والبحث عن أطايبه، والتنادي إلى كل ذلك، والاجتماع عليه والتواصي به، وذلك من مظاهر الترف الذي جعل الجم الغفير من الناس يعانون بسببه من السمنة وكثيرٍ من الأمراض الناشئة عن التّخمة.

ومعظم أمراض الإنسان ناتجة عما يدخله الإنسان إلى جوفه، وقد نهى الحكماء عن إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: «إن ذلك أساس المرض». «والذي يضبط لك هذا الباب، ويحفظ قانونه على الميزان: أن تأكل ما وجد، طيبًا كان أو قفارًا، ولا تتكلف الطيب وتتخذه عادة»[1].

وينبغي أن يكون القصد من الأكل عند الإنسان أن يكون بلغة إلى الآخرة، ومعينًا على عبادة الله، وتحقيق الموازنة القائلة: لا ضرر ولا ضرار. فالقصد هو الاعتدال دون التّخمة في الأكل. وهذه قاعدة نافعة، مبعدة للآخذ بها عن الترف، وقد أمرنا بعدم الإسراف في الطعام.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

والمقصود بالإسراف في الطعام «إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره

(١) قمع الحرص بالزهد والقناعة، القرطبي ص ٢٠٥ بتصرف.

في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفّه في المآكل والمشارب واللباس»[1].

❁ **الترف في المسكن والبناء.**

من مظاهر الترف صرف الأموال الضخمة في بناء المنازل والدور، والتباهي في إعدادها وتصاميمها البديعة في الشكل الخارجي والداخلي، مع الحرص على تعدّد مواقعها، فبعضها للشتاء والآخر للصيف، وبعضها للسكن وبعضها للنزهة، ومع الحرص على سعتها وكثرة غرفها ووجود ملحقات لها ووفرة وسائل الترفيه فيها، مع الإكثار من الفرش الوثيرة والأواني الفاخرة والمتاع الراقي، مع أن الذي يكفي الإنسان من ذلك الشيء القليل، وأيام العمر تقصر، وتأبى أن تتسع للعبد لكي ينتفع بها ويستخدمها.

وكلامنا هذا لا يعني أن لا نبني بيوتنا بوسائل البناء الحديثة، بل نستفيد مما هو موجود في حدود الاعتدال، مع البعد عن المفاخرة والتظاهر، ومع تذكر أننا راحلون إلى دار آخرة هي خير من هذه، فلا نتمادى في تشييد المباني، بل القصد هو الخير.

والقرآن ذكر لنا صورًا من ترف الأمم المترفة السابقة في المسكن والبناء، من هذه الصور:

الصورة الأولى: قوم (عاد) المترفون: حيث أنكر نبي الله هود عليه السلام عليهم هذا الترف في المساكن بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ أي: معلمًا بناء مشهورًا، ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: وإنما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكر عليه نبيهم عليهم السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان، وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة»[2].

«فبناء قوم عاد للمساكن يبدو من الآيات أنه كان ترفًا، وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثمّ سماه عبثًا، ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة»[3].

الصورة الثانية: قوم ثمود: فهؤلاء القوم المترفون ذكر القرآن عنهم على لسان نبيهم صالح عليه السلام أنه قال لهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «قال ابن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ١٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٠٩ بتصرف.

عباس وغير واحد: «يعني: حاذقين»، وفي رواية عنه: «شرهين أشرين» وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها»[1].

فنخلص من هذا إلى أنّ البناء إذا كان للترف والمفاخرة، وعدم الحاجة فهو المنهي عنه، والمذموم صاحبه، أما إذا كان البناء للحاجة مع الاعتدال، وعدم المفاخرة والتباهي فلا شيء في ذلك، والشرع لم ينه عنه، والله أعلم.

❁ **الترف في الملبس.**

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

عندما أمر الله تعالى بالزينة في الملبس قصد من ذلك أن تضمن لصاحبها مظهرًا مقبولًا، يستر ما تحته من عورة، ويقي من البرد في فصل الشتاء، ويمنع الحرّ في فصل الصيف، وأن لا يكون في ذلك الملبس أي نوع من الخيلاء؛ لأن من سلك مسلك المترفين فلا شك أنه أصيب بالمخيلة، وهو مرض عضال، يسقط صاحبه من حيث رفعه، فهو في نفسه رفيع، وفي نظر الله والناس وضيع، وإن اغترّ به البعض.

ومن مظاهر الترف جعل المال في الملابس الراقية، والاكتفاء بلبس الجديد والفاخر، حتى كثرت بسبب ذلك الملابس غير المستخدمة في المنازل، وتكدست مع وجود تنوع في الاستعمال حسب تعدد فصول العام، واختلاف أوقات اليوم، ويبرز ذلك الجانب أكثر لدى النساء.

قال صلى الله عليه وسلم: **(إن من شرار أمتي الذين غذوا في النعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب يتشدّقون بالكلام)**[2].

وليس معنى هذا أن نترك زينة الدنيا ونحرّمها على أنفسنا ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولكن الأساس في هذا النوع من التنعم وغيره من سائر وجوه التنعم أن ينضبط بحد القصد والاعتدال.

ومن صور الترف في الملبس: لبس الحرير للرجال، فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: **(لا تشربوا في إناء الذّهب والفضّة، ولا تلبسوا الدّيباج والحرير، فإنّه لهم في الدّنيا، وهو لكم في الآخرة يوم القيامة)**[3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ١٥٦.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٧٧.
وصححه الألباني بمجموع طرقه، في السلسلة الصحيحة ٤/ ٥١٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس

٣. الافتخار بالنفر والجاه.

مما درج عليه المترفون في حياتهم افتخارهم بالنفر والجاه، والاستعلاء بهما على الناس، وهذا أمر مطرد بين كل الأمم المترفة، والقرآن ذكر لنا من حال هؤلاء المترفين في افتخارهم بالنفر والجاه عدة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤- ٣٥].

«هذا هو رد المترفين على كل دعوة إلى الإيمان بالله، وتلك هي حجتهم عند أنفسهم وعند الناس، إنهم بما يملكون من كثرة في الأموال، وما عندهم من كثرة في الأولاد والرجال لن يكونوا تابعين لغيرهم، ولن يجعلوا لأحد كلمة عندهم، حتى ولو كان رسولًا من رسل الله، يدعوهم إلى الله، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الحق والهدى! إنهم أكثر أموالًا وأولادًا من هذا الرسول، فكيف يقوم فيهم مقام الناصح ذي الرأي والسلطان؟! وكيف يتفضّل إنسان على من كان أكثر منه مالًا وولدًا؟!

وفي قولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إشارة إلى أنهم بما لهم من كثرة في المال والأولاد، لن ينزلوا عن مقام السيادة لأحد، ثم إنهم إذا عذّب غيرهم من الفقراء والمستضعفين لن يعذبوا هم؛ فإن الله ما أعطاهم هذا الوفر في المال والكثرة في الأولاد إلا لأنهم أهل للكرامة، وموضع للفضل عنده، وكما كانوا في الدنيا في هذا المقام بين الناس، فهم في الآخرة -إن كانت هناك عندهم آخرة- في هذا الموضع أيضًا، حيث يعذّب الفقراء والمستضعفون، أما هم فلن يعذّبوا، بل ينزلوا منازل الإكرام والإعزاز؛ ذلك ظنهم بأنفسهم»[1].

والمتمعن في الآية يستطيع أن يستنبط السبب الرئيس للتكذيب من قبل المترفين لأنبيائهم، ألا وهو خوفهم من زوال النعم والشهوات التي نعّموا بها، من قبيل كثرة الأموال والأولاد، واستعلاؤهم بما آتاهم الله من فضله ونعمائه، حيث اعتقدوا أنّ الفيصل في المفاضلة بين الناس هو الثروة وكثرة النسل من الذكور.

وقد ذكر لنا القرآن مثالًا عمليًّا من تكبّر المترفين بنفرهم، واعتزازهم بأولادهم في قصة صاحب الجنتين، حيث قال: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا وَفَجَّرۡنَا

والزينة، باب تحريم الشرب في آنية الذهب وخاتم الذهب والحرير على الرجل، ٣/ ١٦٣٧، رقم ٢٠٦٧، عن البراء بن عازب.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٨٢٩-٨٣٠٩ بتصرف يسير.

﴿خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٦].

فصاحب الجنتين «تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا، أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلا بد أن يكون جنابه ملحوظًا في الآخرة! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

إنه الغرور يخيّل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ»[1].

والقرآن الكريم لم يترك هذا الاعتقاد عند المترفين دون ردٍّ عليهم وبيان لخطئهم، بل بيّن لهم موازين القيم، وأنها مرتبطة بالإيمان والعمل الصالح، وليس بكثرة النفر والأولاد، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقد بيّن الله تعالى أن التوسعة في النعم على العباد في الدنيا إنما هو امتحان وابتلاء، بخلاف ما يعتقدونه، فقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وكما ذكر القرآن مثالًا عن افتخار المترفين بالنفر فإنه ذكر لنا مثلًا على الافتخار بالجاه يتجلّى في موقف قريشٍ من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

رجلٍ عظيمٍ كبير في أعينهم من القريتين! يعنون: مكّة والطائف» [1]، «فهم يرون أنفسهم أحق بالرسالة لعظم جاههم، وهذا الجاه النابع عن المادة مردٍ، ويزول بزوال صاحبه، أما الجاه النابع عن الروح -وهو ما يضطر الإنسان إليه- فإنه منجٍ، وباقٍ ولو توفي صاحبه»[2].

أخلاق المترفين وعاقبتهم

تحدث القرآن الكريم عن المترفين وأخلاقهم وعاقبتهم، وهو ما نتناوله فيما يأتي:

من أخلاق المترفين وسلوكهم:

أولًا: من أخلاق المترفين:

١. الكبر.

المتأمل في نصوص القرآن الكريم يجد أن الله تعالى ذمّ الترف والمترفين، وذكر للمترفين أخلاقًا عرفوا بها في القرآن الكريم، ومن هذه الأخلاق الكبر، وهو بطر الحقّ، وغمط النّاس [3][4].

ونجد الكبر ورفض الحقّ واضحًا جليًّا في مقابلة الملأ المترفين لدعوة رسلهم وأنبيائهم.

فمنذ عهد نوحٍ عليه السلام نجد هؤلاء الملأ المترفين المستكبرين يقفون في وجه الدعوة، مستقلّين شأن المتبعين لها من الفقراء الذين لا مال لهم ولا جاه، بل ويطلبون أن يطرد هؤلاء الأراذل في رأيهم؛ قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢٥ بتصرف يسير.

(٢) الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ١٨ بتصرف.

(٣) بطر الحق: أي دفعه وأنكره وترفّع عن قبوله. غمط الناس: احتقارهم والتهاون بحقوقهم. انظر: فيض القدير، المناوي ٥/ ٦٢.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ٩١ عن عبد الله بن مسعود.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

فانظر إلى هؤلاء المترفين للتعرف على كبرهم ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ «فهم يسمون الفقراء من الناس أراذل كما ينظر الكبراء دائمًا إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان»[(١)].

فزينة الحياة الدنيا ومتاعها، أخذت بعقول هؤلاء، فقادهم الترف فيها إلى الكبر، وهذا تجده في القرآن عامًّا في جميع الرسالات، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤ - ٣٥].

فـ«الترف يفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور»[(٢)].

٢. الحرص على الشهوات والمتع.

من أخلاق المترفين التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم، الحرص على الشهوات والمتع والزينة.

فأهل الترف يؤثرون الشهوات والمتع في الدنيا -وإن كانت على حساب الشرع- على الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

قال الطبري: «اتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله وتجبروا وصدوا عن سبيله»[(٣)]. وهذه الآية تنعي على القرى المهلكة عدم وجود جماعة أولي «عقل ورأي وصلاح ينهونهم عن الفساد في الأرض باتباع الهوى والشهوات التي تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم، فيحولون بينهم وبين الفساد»[(٤)].

فهؤلاء المترفون «صبّ عليهم النعمة صبًّا، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات»[(٥)]، حتى فجأهم العذاب ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[(٦)].

وهذا يوحي بأن المرء متى تجرّد للحق فإنه لا يملك إلا اتباع الكتاب والسنة، ما لم يصب بآفة الترف التي تقطعه عن هذا الاتباع المحمود، وتجعله يركن إلى الشهوات ويألف التمرّد والعصيان، ومن ثم تخرجه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٧٢.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩١٠ بتصرف.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٢٩.
(٤) تفسير المراغي ١٢/ ٩٧.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٧/ ٢٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦١.

عن حدّ الاعتدال إلى حدّ الإسراف والظلم للآخرين.

وبذلك يظهر شؤم الترف وأنه «هو الباعث على الفسوق والعصيان والظلم والإجرام، ويظهر ذلك أول ما يظهر في السادة والرؤساء، ومنهم ينتقل إلى العامة والدهماء فيكون ذلك سببًا في الهلاك بالاستئصال، أو في فقد العزّة والاستقلال، وتلك هي سنّة الله في خلقه، كما قال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]»[(١)].

ثانيًا: من سلوك المترفين:

الترف آفة مفسدة ومتى استوطنت كيانًا نخرته ونشرت فيه شتى العلل والأوبئة، وأظهرت عليه الكثير من السلوكيات السيئة، ولقد أشار القرآن الكريم إلى شيء من سلوك المترفين:

١. التمرد على أحكام الشرع.

من النماذج القرآنية التي يتجلّى فيها سلوك التمرّد على الشرع وتعاليم السماء عند المترفين هو ما قصّه الله علينا في شأن قوم ثمود.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٤].

ففي هذه الآيات يظهر سلوك التمرد عند الملأ المترف[(٢)]، وكيف أنهم استقبلوا دعوة نبيهم لا بالطاعة والإذعان، ولكن بالرفض والإنكار والتكذيب.

ويقص علينا القرآن في موضع آخر كيف أنهم طلبوا من نبيهم أن يأتيهم بآية: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤].

قال ابن كثير: «اقترحوا عليه آية يأتيهم بها؛ ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه -وقد اجتمع ملؤهم- أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة عندهم- ناقة عشراء من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح عليه السلام العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليصدقنه وليتبعنه، فأنعموا بذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى، ثم دعا الله تعالى أن يجيبهم

(١) المصدر السابق ١٢ / ١٥٨.

(٢) الأظهر أن المراد بهم: قوم ثمود؛ لأنهم من أهلكوا بالصاعقة، كما جاء في خاتمة الآيات. انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٤٩.

إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء، على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم»[1].

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل دفعهم ترفهم إلى مزيد من التمرّد، فقد قال لهم نبيهم: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

يعني: «ترد ماءكم يومًا، ويومًا تردونه أنتم»[2] ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ «بعقر أو غيره فخرجت واستمرّت عندهم بتلك الحال فلم يؤمنوا واستمرّوا على طغيانهم»[3]، وفي النهاية قاموا بعقرها ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧-١٥٨].

وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على شدة عتوّهم وتمرّدهم، فآية الناقة آية عظيمة لا يملك الإنسان أمامها إلا الإيمان والتصديق، ولا غرو فقد وصفها الله بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

«إشارة إلى أنها كانت آية واضحة، تعيش في الناس، وتتمشّى بينهم، يمرّون بها مصبحين وممسين»[4].

ولكن هكذا الترف «يغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب فتغدو قاسية عاصية متمردة، والعياذ بالله»[5].

٢. الجزع والفزع عند المصيبة.

قد ظهر في العنصر السابق كيف أن التمرد هو مسلك أهل الترف، والمرء قد يخال أن المترفين لفرط تمردهم أقوياء، وأنهم لعتوّ عصيانهم أشداء، ولكن على العكس تمامًا فهم خوّراون جبناء لا ثبات لهم إذا دهمتهم مصيبة، ولا صبر لهم إن نزل بساحتهم بلاء.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وفي هذه الآيات يظهر مدى شدة فزع المترفين والذعر الذي يملأ نفوسهم إذا حلت بهم الكوارث وكيف أنهم يولون هاربين، ويظهر اشتداد فزعهم عند حلول البأس من خلال أمور:

التعبير بـ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟﴾ والإحساس هو: الإدراك بالحسّ فيكون برؤية ما يزعجهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦ / ١٥٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٥٩٦.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨ / ٥٠٩.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٤٦٧ بتصرف.

أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح[1]. فإذا كانوا يفرون هاربين لمجرد رؤية العذاب ومشاهدة بوادره، فهذا لا شك يكشف عن شدة فزعهم.

التعبير بـ﴿يَرْكُضُونَ﴾ والركض هو: سرعة سير الفرس، وأطلق الركض في هذه الآية على سرعة سير الناس على وجه الاستعارة تشبيهًا لسرعة سيرهم بركض الأفراس[2]. ففرارهم بهذه السرعة يدل حتمًا على الفزع الكبير الذي يتملكهم ويسكن نفوسهم عند نزول المصائب.

التعبير بـ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ أي: ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هجّيراهم حتى حصدناهم حصدًا، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خمودًا[3]، فاستمرار هذه المقالة معهم حتى إهلاكهم يدل على اشتداد جزعهم.

ومما يدل على جزعهم أيضًا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٤].

ومعنى: ﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ يصرخون، وهو كناية عن شدة ألم العذاب بحيث لا يستطيعون صبرًا عليه، فيصدر منهم صراخ التأوّه والويل والثبور[4].

وهذا يدل على غاية الضعف والخور؛ فالإنسان لا يصرخ إلا إذا كان في محنة لا تقدر أسبابه على دفعها، فيصرخ طلبًا لمن ينجده، ويرفع صوته ليسمع كلّ من حوله.

وهكذا يظهر سلوك المترفين، وكيف أنهم يكونون أشدّ ما يكونون خوفًا وفزعًا عند المصائب، وأنهم «لا يصبرون على الابتلاء، بل يخرّون صاغرين أمام أي شدة، أو كارثة تصيبهم»[5].

ثالثًا: عاقبة المترفين:

«المترفون هم آفة المجتمع في كل أمة، وفي كل جيل؛ إذ فيهم ينشأ الفسق، والمجون، وكل ما من شأنه أن يغذي العواطف الخسيسة»[6].

ومتى تركوا في المجتمع دون ردع وضرب على أيديهم «عاثوا في الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثمّ تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها»[7].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧ / ٢٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٣٣٥.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٨٤.
(٥) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠ / ٥٠٩٠ بتصرف.
(٦) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١ / ٨٢٩.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٧.

ولذلك توعّدهم الله بعقاب أليم كما أنه نوّع عقوبتهم، فمنها ما هو دنيوي، وما هو أخروي.

١. العقاب الدنيوي.

ذكر الله صورًا لعقاب المترفين في الدنيا منها:

❁ **التدمير والإهلاك.**

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وها هنا يخبر الرب تبارك وتعالى أنه إذا أرد إهلاك قرية لظلمهم وفجورهم أمر مترفيهم «بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة» [(١)]. وحقّ عليهم بذلك الهلاك والدمار.

وإنما خصّ المترفين بالذكر؛ لأن «العامة والدهماء يقلدونهم فيما يفعلون؛ ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبله» [(٢)].

وهكذا يجلب الترف الهلاك والدمار ليس على أصحابه فحسب، بل على المجتمع بأسره، وتأمّل كيف أن العذاب طال القرية بأكملها وما ذلك إلا «لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلّطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلّط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك» [(٣)].

وخاتمة الآية تظهر بجلاء حجم الدمار الذي يلحق أهل الترف فالله تعالى أكد التدمير بمصدره «للمبالغة في العذاب الواقع بهم» [(٤)]، ولإظهار شدة الهلاك الواقع على تلك القرية.

وتظهر هذه العقوبة المؤلمة للمترفين في الدنيا أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وهذه الآية تبين مدى شدة العقاب الذي يحل بالمترفين في الدنيا، ويظهر ذلك من خلال التعبير بالقصم الذي هو «الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع، واستعير للاستئصال والإهلاك القوي» [(٥)].

وفي النهاية تذكر الآيات كيف أنهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٦١.
(٢) تفسير المراغي ١٥ / ٢٦.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠ / ٢٣٤.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧ / ٢٥.

ذكروا ظلمهم واستفاقوا بعد فوات الأوان ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤ - ١٥].

«والمراد: أنهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة، وجفّوا كما يجفّ الحصيد، وتخمّدوا كما تخمد النار» (١). وهذا لا شك يظهر شدة الأخذ والإهلاك الذي أصابهم وقطع دابرهم.

❁ **انقطاع الذكر.**

قال الله تعالى عن قوم ثمود: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٤١].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢ / ١٢٤.

«والغثاء ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة لا خير فيها، ولا قيمة لها، ولا رابط بينها.

وهؤلاء لما تخلوا عن الخصائص التي كرّمهم الله بها، وغفلوا عن حكمة وجودهم في الحياة الدنيا، وقطعوا ما بينهم وبين الملأ الأعلى، لم يبق فيهم ما يستحق التكريم، فإذا هم غثاء كغثاء السيل، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام. ويزيدهم على هذه المهانة الطرد من رحمة الله، والبعد عن اهتمام الناس ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعدًا في الحياة، وفي الذكرى في عالم الواقع، وفي عالم الضمير (٢).

٢. العقاب الأخروي.

إذا كانت عاقبة المترفين في الدنيا هي الإهلاك والتدمير، وانقطاع الذكر، فما لهم في الآخرة أعظم وأشد، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٥].

وهذه صورة عصيبة لعذاب المترفين في الآخرة، إنهم ﴿فِي سَمُومٍ﴾ والسّموم: الرّيح الحارّة الّتي تدخل في مسامّ البدن، والمراد هنا: حرّ النّار ولفحها، ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي: ماء حارّ قد انتهى حرّه، إذا أحرقت النّار أكبادهم

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٤٦٨.

وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالّذي يفزع من النّار إلى الماء ليطفئ به الحرّ فيجده حميمًا حارًّا في نهاية الحرارة والغليان [١].

ونلحظ هنا أنه ذكر السموم والحميم دون النار، وذلك «إشارة بالأدنى إلى الأعلى، فإن هواءهم إذا كان سمومًا، وماءهم الذي يستغيثون به حميمًا، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها، فما ظنّك بنارهم، فكأنه قال: إن أبرد الأشياء لديهم أحرّها، فما بالك بحالهم مع أحرّها؟!» [٢].

وهم من شدة ما يلقونه من هذا السموم وذاك الحميم يفزعوا إلى الظّلّ كما يفعل أهل الدنيا؛ ولكنهم يجدونه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: من دخان جهنّم أسود شديد السّواد [٣]. ووصف الله هذا الظل بأنه ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ «أي: ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: ولا كريم المنظر» [٤]. والمقصود «أن هناك الهمّ والغمّ والحزن والشرّ الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لضده» [٥].

أما الذي أنزلهم هذا المنزل المشئوم، وألقى بهم في هذا البلاء العظيم، فهو ترفهم في الحياة الدنيا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي: متنعّمين في ترك أمر الله، فشغلهم ترفهم عن الاعتبار والتعبّد [٦].

ونلحظ هنا أن عذابهم جاء مطابقًا لحالهم، فالله أفاض عليهم بالنعم التي كان من حقها «أن تفتح لهم طريقًا إلى الله، فيحمدوا له ويشكروه، ولكنهم بطروا، وأشروا واستكبروا في الأرض، وعتوا عن أمر ربهم، وصدّوا عن سبيله» [٧]. فأبدلهم الله به السموم والحميم والظل الذي لا هو بارد ولا كريم.

ومن الآيات الدالة على عقوبة المترفين في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم.

وقوله تعالى: «﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: رويدًا» [٨]. وقد جاء وصفهم بـ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ «توبيخًا لهم بأنهم كذبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم» [٩].

وقد ذكرت الآيات بعد ذلك من ألوان

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧ / ٢١٣.
(٢) تفسير المراغي ٢٧ / ١٤١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧ / ٢١٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٨٣٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ٥٣٨.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩ / ٢٦٩.
(٧) زاد المسير، ابن الجوزي ٤ / ٢٢٥.
(٨) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤ / ٧١٩.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٥٦.

العذاب المعدّ للمترفين في الآخرة أمورًا أربعة:

أولًا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ أي: «إن لدينا لهؤلاء المكذبين بآياتنا قيودًا ثقيلة توضع في أرجلهم كما يفعل بالمجرمين في الدنيا إذلالًا لهم»[(١)].

قال الشعبي: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا؟ لا والله! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم[(٢)].

ثانيًا: ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي السعير المضطرمة.

ثالثًا: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج[(٣)].

رابعًا: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعًا مفظعًا[(٤)].

ومما يكشف عن شدة العذاب المعدّ لهم أن أجناس العذاب الأربعة جاءت منكرة وذلك «لقصد تعظيمها وتهويلها»[(٥)].

ويكفي أن نستحضر أنّ عذابهم في الآخرة أيضًا جاء مضادًّا لأصول النعمة التي خوّلوها، فبطروا بها «فالأنكال مقابل كفرانهم بنعمة الصحة والمقدرة؛ لأن الأنكال القيود، والجحيم وهو نار جهنم مقابل ما كانوا عليه من لذة الاستظلال والتبرد، والطعام ذو الغصة مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنيئة من الثمرات والمطبوخات والصيد»[(٦)].

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الإنفاق، المال

(١) تفسير المراغي ٢٩ / ١١٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ٤٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٥٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٨٩٣.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩ / ٢٧١.
(٦) المصدر السابق ٢٩/ ٢٧١.